مفهوم التقنية بين الثقافة والطبيعة لدى جيلبرت سيموندون: قراءة فلسفية معاصر

مالك الطراونة[1]، عامر شطارة[2]

ملخّص

يهدف هذا البحث إلى إنجاز مقاربة فلسفية لمفهوم التقنية وعلاقتها بالثقافة من منظور الفيلسوف الفرنسي جيلبرت سيموندون، إذ إن أفكاره اكتسبت أهمية كبيرة في خضم التطور الهائل للتكنولوجيا الرقمية وثورة المعلومات التي وسمت المشهد الإنساني والثقافي الراهن. ولذلك جاءت هذه الدراسة باستخدام المنهج التحليلي النقدي لتوضح محاولات سيموندون توطين التقنية في الفعل الإنساني اليومي، بحيث يكون فعلاً متسقاً مع الطبيعة البشرية ومغذياً للجانب الثقافي بدلاً من علاقة التضاد. سؤال سيموندون الأساسي الذي يهتم به هذا البحث هو "ما مكان التكنولوجيا والعمليات التقنية المرافقة لها في حياتنا"؟ وهل سنعتبرها شيئاً سلبياً وخطراً، وبالتالي نحن بحاجة إلى التخلص منها والعودة إلى عصور ما قبل التكنولوجيا، أم سنعتبرها أفضل شيء حصل لنا وأنها قادرة على حل جميع مشاكل الإنسان وبالتالي وجب تطويرها؟ جاءت إجابات سيموندون عن تلك الاسئلة كالآتي: أولاً: عبر مراجعة فلسفية نقدية لمفهوم التقنية من خلال العودة إلى تفسير أرسطو لما هو "موجود" عبر نموذج الهيلومورفيزم *Hylomorphism إلى هايدغر مروراً بماركس وبيرغسون. وثانياً: عبر كشف العلاقة الجدلية بين الثقافة والطبيعة والتي لم تحظ بتحليل وافر يفضح ما يتوارى خلف هذه العلاقة، ويقف عند نقاط التقارب بينهما بغرض التفكير في إرساء بنيان فلسفي متماسك يردم الهوة التي جعلت الإنسان يشعر بتهديد لوجوده، وبمساس بإرادته الحرة محاولاً باستمرار تجاوز حالة الاغتراب التي يشعر بها إثر انخراطه في مجتمع تقني هو من أرسى قواعده وابتكر آلاته، لكنه يخاف من فقدان قيمته فيه كذات عارفة وصانعة أمام هيمنة الآلة وسلطتها.

الكلمات الدالة: التقنية، الثقافة، الطبيعة، الاغتراب، الفلسفة، التفرد.

المقدمة:

بداية لا بد من تأسيس مفاهيمي يحاول معالجة "التقنية" بما هي مفهوم له جذوره ودلالته في الفلسفة اليونانية، فقد قدم أفلاطون Plato (427 ق.م–347 ق.م) في كتابه "محاورة بروتاجوراس" نبذة يمكن من خلالها استشفاف ماهية التقنية وكيف يمكن فهم مغزاها في التاريخ اليوناني، حيث تروي الأسطورة التي جاءت على لسان بروتاجوراس أن الآلهة فوضت بروميثيوس وأخاه ابيميثيوس لتحدد قدرات الكائنات الحية وقد تصدى الأخير لذلك على أن يعود بروميثيوس ويتأكد مما قام به أخوه، فوجده وزع القدرات بحسب السرعة والقوة على مملكة الحيوان لكنه لم يخص البشر بما يميزهم، "فأسرع إلى سرقة النار ومعرفة الفنون "أي الصناعات" من الإله هفايستوس ومن الآلهة أثينا: فالفنون بغير النار لا تقوم لها قائمة" (أفلاطون، 2001، ص42)، وبذلك فإن الآلهة قد منحت البشر مزيّة على باقي أعضاء مملكة الحيوان في طبيعتهم تتمثل بإمكانية تطويعهم للمادة وممارستهم للأعمال الحرفية. ومؤدى ذلك تميز البشر وقدرتهم على استخدام الأدوات لتساعدهم في عيشهم ولتحميهم من الأخطار المحدقة.

[1] دكتوراه في الفلسفة الغربية، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
malektarah@yahoo.com

[2] قسم الفلسفة، كلية الأداب والعلوم، جامعة قطر، قطر.

*الهيلومورفيزم Hylomorphism: الفكرة الأرسطية القائلة بأن الجسم يتكون من صورة ومادة (Form and Matter)

تاريخ استلام البحث 2022/10/20 وتاريخ قبوله 2023/7/12.

© 2023 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

يرى أرسطو Aristotle (384 ق.م–322 ق.م) أننا "نطلق اسم "فن الصناعة" على ما يظهر في الأشياء المصنوعة بهذا الفن التقني الصناعي فكذلك نطلق اسم "الطبيعة" على الموجودات الطبيعية التي هي ذاتها على المجرى الطبيعي" (أرسطو، 1998، ص44). كما ركز أرسطو على نقطة غاية في الأهمية تتعلق بإقامة فرق بين التقنية والطبيعة من حيث حاجة التقنية إلى صانع يعيد تهيئة المادة إلى الحركة بينما تمتلك الطبيعة قدرة على أن تهيئ المادة بصورة ذاتية تلقائية، فنحن في المهارات التقنية "نهيئ المادة من أجل إنجاز وظيفة ما. أما في الأشياء الطبيعية فإن الطبيعة ذاتها هي التي تهيئ المادة" (أرسطو، 1998، ص48).

إن تناول التقنية من منظور فرانسيس بيكون Francis) (Bacon 1561-1626 هو بمثابة نقطة انطلاق تأسيسية للتقنية لما تتضمنه من توظيف للآلة في الفلسفة الحديثة، فقد اعتبر بيكون من الرواد المؤسسين لتدشين أساسات العلم بوساطة منهج الاستقراء الذي أخذ به، والذي يعتمد على التجربة والملاحظة بغرض الوصول إلى صيغة علمية ممكنة التطبيق وقابلة للتحقق. لم يقف بيكون في وجه الطبيعة، بل دعا إلى الامتثال لمنطق الطبيعة وقانونها، "ذلك أن الطبيعة لا يمكن قهرها إلا بإطاعتها، وما يعد علة في مجال الفكر النظري يعد قاعدة في مجال التطبيق" (بيكون، 2013، ص 16)، وهذا يعني أن من يطمح للسيطرة على الطبيعة فعليه أن يفهم سلوكها ومبدأها كي يستطيع أن يطوعها لصالحه في سعيه إلى تعزيز المنجز العلمي والتقني. كان اهتمام بيكون واضحاً بالاكتشافات العلمية والتقنية معتبراً أنها غابت عن الإنسان ولم يتنعم بمزاياها العديدة على الرغم من صعوبة تدشينها في البداية؛ إذ إن "صف أحرف الطباعة أصعب من كتابة الأحرف بحركة اليد إلا أن أحرف الطباعة ما إن يتم صفها حتى تمكننا من أخذ ما لا يحصى من الطبعات في حين لا تسمح الأحرف المكتوبة باليد إلا بنسخة واحدة" (بيكون، 2013، ص107). وفي هذا إشارة واضحة من بيكون إلى دور التقنية –وهنا تقنية الطباعة– في تسهيل عمل الإنسان وتعظيم منافعه منها بالرغم من العقبات التي ترتبط بطبيعة الإنسان المحدودة والتي تواجهه في أثناء عملية تدشين التقنية.

وعلى أثر ذلك، بدأ تداول مفاهيم جديدة على الساحة الفكرية والعلمية مثل التقنية والتكنولوجيا إلا أنها لم تحظ بالدراسة الكافية ولم تتحدد الفروق الاصطلاحية بدقة بين هذه المفاهيم المتداخلة، وأبرز هذه المفاهيم: التقنية والتكنولوجيا؛ فقد حدث خلط كبير بينهما في الدراسات المختلفة لكن بمقتضى الاشتغال على نص جيلبرت سيموندون (1924–1989 Gilbert Simondon) والذي ربط بحثه في فلسفة التقنية من زاوية كيفية ظهور الشيء التقني وكيف يصبح هذا الشيء متفرداً (individuated)، نكون مطالبين بإقامة تفريق بينهما بالبحث، إذ كان سيموندون مهتماً بالتمييز بينهما؛ فهو يرى أن التكنولوجيا تحمل بعداً تطبيقياً، وتأتي ممارسةً للبناء النظري التقني (Simondon, 2017, p 9). كذلك يرى سيموندون في بداية دراسته لكيفية وجود الجسم التقني، أن المقابلة بين الثقافة والتقنية كالمقابلة بين الإنسان والآلة "هي خاطئة ولا أساس لها" (Simondon, 2017, p 9).

يفرّق الفيلسوف المتخصص في مجال فلسفة التكنولوجيا برنارد ستيجلر (Bernard Stiegler 1952–2020) والذي تأثر بفلسفة سيموندون بين التقنية والتكنولوجيا في دراساته التي استقصى فيها الأصول الفلسفية للتكنولوجيا؛ إذ يرى "أن التكنولوجيا خطاب في التقنية" (Stiegler, 1994, p 93)، ويعتبر أن التقنية هي ما يتعلق حصراً بحياة الإنسان في أثناء استخدامه للأدوات والمعدات، لا الآلات فقط، كما أنها تشمل كل المهارات التي تحمل طابعاً إنتاجياً يحول المادة الخام (الأولى) إلى مادة جديدة (ثانية) (Stiegler, 1994, p 93). فالتكنولوجيا وعاء تنتظم وتنضج فيه الإجراءات والطرائق وآليات التفكير وأنماط المعرفة المتعلقة بها، ويصف هذا الوعاء من خلال أدوات الخطاب اللغوية والفكرية كيفية تطور كل ما سبق في الانصهار ضمن نظام تقني محدد واضح المعالم.

ومع أن التفاؤل قد غمر الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (Rene Descartes1596-1650) إزاء دخول التقنية بشكل واسع إلى العلم في بدايات القرن السادس عشر معتبراً أنها ستكون الطريق ليكون الإنسان سيداً على الطبيعة، إلّا أنّه لم يضع بحسبانه أن تطور هذه التقنية سيصطدم بالكيان الثقافي للإنسان، إذ أشاد بتبني فلسفة عملية مؤكداً أنها أمر "ليس محبذاً فقط من أجل اختراع ما لا يحصى من

الوسائل التي تجعلنا نتمتع دون أي عناء بثمار الأرض وكل المنافع الموجودة فيها، بل كذلك، وبصفة رئيسية، من أجل حفظ الصحة" (ديكارت، 2008، ص341–342). لكن الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني كارل ماركس (1883–1818 Karl Marx) أشار إلى الجانب الثقافي الذي غاب عن ديكارت بتسليطه الضوء على التحول الذي أحدثته التقنية إثر وجودها كمساعد صنعه الإنسان ليقف إلى جانبه في إنجاز أعماله بوقت أقل وبكفاية أعلى، متحولاً بعد ذلك إلى قوة منتجة تتغول على الإنسان وتفتك به في حال تركت الأمور دون ضوابط؛ إذ تتفوق الآلة على الإنسان وما يستعمل من أدوات بدائية حيث إن "الماكينة التي تنبثق الثورة الصناعية منها تحل محل العامل الذي يشتغل في وقت واحد بأداة واحدة فقط، بآلية تشغل دفعة واحدة العديد من الأدوات المتشابهة أو المتجانسة وتحركها هي نفسها قوة محركة واحدة مهما يكن شكل هذه الأخيرة" (ماركس، 1985، ص 540)، وهذا يصحبه تغير في البنى الثقافية والاجتماعية للعامل؛ فالتقنية بوصفها منتجاً بشرياً تصبح غريبة عن صانعها وتحديداً في حال أصبح المنتج متوافراً بكميات كبيرة، عدا عن أن بعض المنتجات تحل وظيفياً محل الأيدي العاملة وهذا ما ينطبق على التقنية، ويرى ماركس "أن العامل يصبح أكثر رخصاً كلما زاد عدد السلع التي يخلقها، فمع القيمة المتزايدة لعالم الأشياء ينطلق في تناسب عكسي في انخفاض قيمة عالم البشر" (ماركس، 1974، ص68–69). أما هربرت ماركوز (Herbert Marcuse 1898-1979) فقد قرأ أفكار ماركس حيال الاغتراب والفيتشية وتنميط الإنسان، واعتبر ماركوز أن التقنية بوصفها تحمل طابعاً سياسياً متضمنة "تجربة الطبيعة وتحويلها وتنظيمها باعتبارها مجرد دعائم للسيطرة" (ماركوز، 1988، ص33)؛ فتتحول التقنية بتأثير الإيديولوجيا الموجهة سياسياً إلى أداة من أدوات الهيمنة والتحكم في المجتمعات والأفراد، وهذا التغلغل التقني في بناءات المجتمع وفي مستويات الإنتاج يلغي المساءلة النقدية ويصادر حريات الأفراد لكنه يعول على نمط حياة أكثر رفاهية يحظى بقبول واسع. ويتابع ماركوز تحليله المعمق بتبيانه للبعد الثقافي الذي تضطلع به التقنية، فيفترض أن كل ما يجري، ينتظم في مشروع "كلما تطور كيف وحدد عالم الكلام والعمل، عالم الثقافة على الصعيد المادي وعلى الصعيد الفكري" (ماركوز، 1988، ص33).

أما الثقافة، ففي القرن الثامن عشر تم التطرق إليها بما هي مفهوم في طريقه إلى التشكل لكنه لم يبارح حالة الإضافة التي التي لازمته، فكانت اللفظة "في أغلب الأحيان، متبوعة بمضاف يدل على موضوع الفعل. هكذا كان يقال "ثقافة الفنون" و"ثقافة الآداب" و"ثقافة العلوم" كما لو كان ضرورياً أن يحدد الشيء المعتنى به تثقيفا" (كوش، 2010، ص 18). لكن مفهوم الثقافة بعد ذلك درس وتبلور بوصفه مفهوماً واضح المعالم والدلالات في أوج عصر الأنوار، وأخذ وضعاً انعتق فيه من مفهوم الطبيعة؛ المذكور في "قاموس الأكاديمية (نشر 1798) الذي وصم الفكر الطبيعي المفتقد للثقافة، مشدداً بهذه العبارة على التعارض المفهومي بين الطبيعة والثقافة" (كوش، 2010، ص18) الذي يميط اللثام عن النظرة المحيطة بالمفهومين، وأن لكل مفهوم خصوصيته واستعماليته المختلفة المميزة له عن غيره من المفاهيم.

إن الثقافة مفهوم واسع وشائك في نفس الوقت ولكن رغم زحمة التعريفات يمكن القول إن الأنثروبولوجي الإنجليزي إدوارد تايلور (Edward Taylor 1832-1917) كان له الدور الأبرز في توضيح المفهوم على أنه مجموع السمات السلوكية التي لا يمكن تفسيرها من خلال العوامل الجينية بل من خلال التعلم والتقليد بين أفراد المجتمع الواحد (Taylor, 1871, p128) وبالتالي تمثل الثقافة حسب هذا المنظور عكس ما هو طبيعي، وكان أول ظهور تعريفي مفصل لمفهوم الثقافة لدى تايلور في مؤلفه "الثقافة البدائية" لكن الغموض لم يفارق التعريف فقد ساوى تايلور بين الثقافة والحضارة في التعريف واعتبرهما مترادفتين حيث إن "الثقافة أو الحضارة هي كلية معقدة تتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والأعراف وأي مقدرة أو عادة يكتسبها الفرد كونه عضواً في المجتمع" (Taylor, 1871, p13) وبهذا التعريف كان لمفهوم الثقافة أن يتأطر وتتضح معالم تكوينه، لكن ذلك حفز الباحثين إلى مزيد من الدراسة والاستقصاء لوضع خطوط فاصلة بين مفهومي الحضارة والثقافة.

ما يهمنا في هذا البحث هو إظهار مفهوم الثقافة بما يتضمنه من محتوى سمته أنه يحصل بالتعلم؛ أي لا تُولد

مكونات هذا المحتوى مع الإنسان، إنما يتعلمها من وجوده في الواقع المعيش، بخلاف المكون الطبيعي الذي يأتي مع الإنسان قبل انخراطه في العالم.

يرجع مفهوم الثقافة – وخصوصا عندما يتم استعماله للدلالة على الثقافة البشرية– أساسا إلى عالم الزراعة وعمليات التحسين والتشذيب على الأرض والمحاصيل الزراعية، وعمليات التدجين والترويض بما يخص عالم الحيوانات. من هذا المنظور تم النظر إلى المميزات الأساسية للمجتمعات الإنسانية على أنها ثقافية بالأساس وبتضاد مع عالم الحيوانات والنباتات (الطبيعة). لذلك كانت الثقافة امتيازاً بشريّاً مقابل البيئة الطبيعية، فيما يشترك به البشر مع عالم الحيوانات (التنفس، الأكل، التكاثر)؛ أي البيئة الطبيعية ستتعارض تماماً مع ما هو خاص بهم (تراثهم الثقافي). فالبشر هم أبطال الثقافة ليس فقط ضد الطبيعة الجامحة الخارجية، ولكن أيضاً ضد طبيعة البشر الحيوانية – الداخلية.

في الحقبتين الحديثة والمعاصرة، استمرت التحليلات الفلسفية في محاولاتها لفك شيفرة العلاقة الملتبسة بين الثقافة والطبيعة، وهنا أخذت التحليلات اتجاهاً أكثر تخصصاً فيما يتعلق بالإنسان فصار موضوع البحث هو الطبيعة البشرية، فنجد مثلا جون ديوي (John Dewey 1859–1952) الفيلسوف الأمريكي المشتغل في فلسفة العلم، قد أعاد قراءة هذه العلاقة من منظور أنثروبولوجي مبيناً أنه بالرغم من أهمية عناصر التكوين الفطري والذي يشكل الطبيعة البشرية إلا أن "ثقافة جماعة ما في عصر معين هي لا شك المؤثر الذي يتعين به نظام هذه العناصر"(ديوي، 2014، ص 24)، وهنا يعتبر ديوي أن نمط الجماعة – مهما كان تصنيفها– بما تحمله من ثقافة هو ما يحدد آلية تعاطي المكون الثقافي والطبيعي في قالب منتظم؛ فالمنظومة الثقافية تعيد ترتيب المحدد الطبيعي بما يتواءم مع البيئة المحيطة وحيثيات التفاعل معها.

على صعيد متصل، وفي تحليل فلسفي معاصر لمفهومي الطبيعة والطبيعة البشرية، نجد أن ميشيل فوكو -1926 (Michel Foucault 1984) قد حاول سبر أغوار كل منهما في مسعى منه لتبسيط هذه العلاقة بتشريحها وتبيان نقاط الاتصال والانفصال؛ حيث إن ما كان يتجلى من فروقات بينهما كان بفعل سلطة الخطاب التي صبغت المشهد في العصر الكلاسيكي، وإن اللغة بوصفها رافدا للخطاب هي من جعلتهما "في الواقع تعملان على عناصر متماثلة (الواحد، التواصل، الفرق الدقيق، التعاقب دون انقطاع)" (فوكو، 1989، ص257). ما أراد فوكو تسليط الضوء عليه من منظوره أن الخطاب كان أداة الحل والربط من خلال استغلال قدرة اللغة على خلق الجوامع والفوارق لكن ما يهم أيضاً أن الإنسان كان خارج هذه المعادلة، وما استدعاؤه إلا لدواعٍ وظيفية ومعرفية تخدم النسق الكلاسيكي العام، أما التداخل الحاصل بين الطبيعة والطبيعة البشرية "فذلك عن طريق آلية المعرفة وعملها؛ أو بالأحرى، فإنه بالنسبة للمنطوق الكبير الذي تتضمنه الإبستيمية الكلاسيكية، تشكل الطبيعة والطبيعة الإنسانية وعلاقاتهما لحظات وظيفية محددة ومرتقبة، وليس للإنسان فيها بصفته موضوعاً عسيراً وذاتاً سيداً لكل معرفة ممكنة، أي مكان" (فوكو، 1989، ص258). ما تقدم هو إيجاز مقتضب لتوضيح العلاقة ما بين ثنائية الطبيعة والثقافة لدى فوكو مع أنه لا يثق بالطبيعة الإنسانية فهي تتأطر وتتشكل وتتمفصل بوساطة الخطاب، فهو بذلك هو أقرب ما يكون من أنصار الثقافة على حساب الطبيعة الإنسانية واستعدادتها الفطرية، فالثقافة هي من تخلق فضاء الحركة وخيارات الانطلاق للطبيعة، وبذلك فإن فوكو لا يخرج التكنولوجيا من نتاجات الوعي الإنساني فهي من لها اليد الطولى في تطويع وتكريس الطبيعة، وبذلك نجد أن الاتجاه الأبرز في موضعة التقنية يميل إلى أن تكون منتجاً ثقافياً يتبدل بتبدل الشرط الثقافي، والذي هو بدوره شرط لتبدل الجوانب الأخرى، والطبيعية منها، وهنا لا يختلف فوكو مع ديوي في نظرتهما التي تضع الثقافة شرطاً أساسياً في إمكان قيام التقنية في أي مجتمع.

هذا الفصل بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي رافقه أيضا نظرة سلبية (إذا لم تكن معادية) للتكنولوجيا والعمليات التقنية المرافقة لها والتي ترى أن جزءاً كبيراً من المشاكل التي يشهدها عصرنا تعود بالأساس إلى التطور التكنولوجي. ولذلك شهدت العلاقة بين الإنسان بما هو حامل للثقافة وبين الطبيعة تحولاً متصاعداً بسبب الكوارث البيئية والتكنولوجيا وانتشار الفيروسات المختلفة، والتي تم إرجاعها إلى لتطور التكنولوجي

المتزايد. وبناء على ذلك تطورت رؤية ترى أن السبيل الوحيد لخلاص البشرية يكمن في التخلي الكامل عن التكنولوجيا، وترى أن تطور التكنولوجيا ما هو إلا تجاوز واغتصاب لما هو طبيعي. فمنذ القرن الثامن عشر أصبح هناك فكرة شائعة مفادها أن التكنولوجيا عبر عمليات التصنيع الواسعة في طور تدمير الطبيعة، وأن الآلة ستأخذ مكان الإنسان في شتى مناحي الحياة.

وفي خضم دراستنا للتقنية في الفلسفة المعاصرة في سياق ثنائية الثقافة والطبيعة لابد من التوقف عند أفكار الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس (Jurgen Habermas -1929) لما تكتسبه من راهنية؛ إذ تمثل التقنية لديه منهجاً علمياً يستخدم "المفاهيم الخالصة وكذلك الأدوات لسيطرة الإنسان المتواصلة والأكثر فعالية على الإنسان بواسطة التحكم في الطبيعة" (هابرماس، 2003، ص47)، وعلى الرغم من الحمولة السلبية المشار إليها ها هنا في الدور السياسي للتقنية في الهيمنة على الفضائين الطبيعي والثقافي وإخضاع البشر والمساس بإرادتهم الحرة وتسييرهم وفق مفاهيم العلم، إلّا أنّ ذلك كله يحتكم لمنطق عقلاني وقانوني فيه "خضوع للآلة التقنية التي توسع من مدى أسباب الراحة أمام الحياة، كما ترفع إنتاجية العمل" (هابرماس، 2003، ص47)، وهنا إشارة من قبل هابرماس إلى أن التقنية لا تمثل خيراً ولا شراً بذاتها لكن كيفية التوظيف السياسي للعقل التقني هي ما يعيد صياغة الطبيعة والثقافة على حد سواء في حياة الإنسان. لكن السؤال الذي يلوح في الأفق هو: هل من مخرج للهيمنة التقنية التي تفرض نفسها تحت غطاء عقلاني حداثوي؟ لقد اعتبر هابرماس أن المخرج من هيمنة التقنية يكون بإحلال التواصل بين الذوات بوصفه نمطاً لتبادل الأفكار والحجاج النقدي بدلاً من الطابع العقلاني الأداتي والذي يرسخ استخدام العقل بوصفه أداة للسيطرة على الطبيعة والثقافة، بالإضافة إلى أن عدم الانفتاح على العلوم المختلفة والفنون والأخلاق خلق حالة من العزلة على المستويين المعرفي والثقافي يمكن تجاوزها بوساطة الفلسفة التي تقوم "بتفعيل التواصل بين الأبعاد الإدراكية–الأداتية والأخلاقية–العملية والجمالية–التعبيرية" (Habermas, 1992, P 19)، وذلك يعني من منظوره إعادة الانفتاح على العلوم المعرفية والأخلاق والفن من خلال الفلسفة لجسر الهوة التواصلية بين الذوات في العالم المعيش.

التقنية في الفلسفة المعاصرة: بين الممكن والمستحيل

تطورت التقنية من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة المعاصرة تطوراً كبيراً جراء ما لحق بالأدوات والمعدات والآلآت من تطور، بالإضافة إلى نضج مناهج العمل وتنقيحها بعد الاستفادة ممّا مرت به في رحلة صيرورتها التاريخية، مما ساعد في أن جزءاً ليس بالقليل مما كان مستحيلاً في الماضي أصبح ممكناً في الحاضر. ما تقدم يمكن أن يعطينا مفتاحاً للإجابة عن السؤال: هل تمتلك التقنية إمكاناً لتحويل المستحيل إلى ممكن؟

لتقديم دور التقنية لدى سيموندون وكيف أنها مكنت الإنسان من تخطي عقبات وحل مشاكل كان يعتقد أنها مستحيلة لا يمكن تجاوزها وهي خارجة عن قدراته، نستعين بفكرة أرسطو حول الوجود بالقوة والوجود بالفعل؛ إذ نظر إلى الموجودات على أنها "ما بالكمال وما بالقوة – كانت الحركة هي كمال ما بالقوة" (أرسطو، 1984، ص171)؛ ممهدين الطريق لأفكار سيموندون بخصوص ما يمكن للتقنية من تحقيقه، والكمال يقصد به أرسطو تحقق وجود الشيء فعلاً، وانتقاله من حاله الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل وهنا يكون الإنسان بما يمثله من ذات صانعة هو المسؤول عن بث الحركة وتحويل النظرية "التقنية" إلى تطبيق فعلي "التكنولوجيا".

في محاولتنا لاستجلاء إمكانات التقنية بحثاً عن شروط الانتقال من المستحيل إلى الممكن، يمكن مبدئيّاً بحسب دراستنا لفلسفة سيموندون في البناءات التقنية النظرية القول بأن التقنية هي وجود بالقوة بما تشكله من بناء نظري أما التكنولوجيا فهي تمثل وجودا عيانيا متحققا "وجودا بالفعل " كما يمكننا أن نصل إلى أن الإنتقال من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية يكون مقرونا بالحركة وهي المسؤولة عن ذلك الانتقال.

يفتح لنا الفيزيائي ميتشيو كاكو (Michio Kaku -1947) نوافذ للنظر نحو مفهومي المستحيل والممكن من زاوية علمية، والمستحيل يأخذ طابعاً نسبيّاً وليس بمطلق لديه ويتجسد ذلك في قوله: "وخلال حياتي القصيرة غالبا ما شاهدت مرة تلو أخرى ما يبدو مستحيلاً يصبح حقيقة علمية

مؤكدة" (كاكو، 2013، ص10). وإن صح القول فهو يدعونا بطريقة ما إلى تحطيم هذه الثنائية التي بتقدم العلم والتقنية تذوب الفروقات بين مكونيها؛ إذ لم يعد هناك حدود فاصلة بين هذين المفهومين، وأنه لا لوجود لفارق حاسم بينهما. وما هو حري بالتقصي في دراسة مفهوم التقنية ضمن حدود الممكن والمستحيل، الولوج إلى عمق فلسفة مارتن هايدغر(Martin Heidegger 1889-1976) في تحليله لطبيعة إمكانات التقنية موضحا أن ما تقدمه التقنية في تجاوزها حالة الاستحالة التي تحيط بالشيء إلى حالة الإمكان من خلال ما ينسجه هايدغر بلغته الفلسفية الخاصة؛ حيث إن إظهار الشيء المحتجب يرتبط بأن "الإنتاج ينقل الشيء من حالة الاختفاء إلى حالة عدم الاختفاء؛ فهو إذن يستحضر ويقدم" (هايدغر، 1995، ص52). يعيد هايدغر قراءة الأفكار اليونانية حيال التقنية لدى أفلاطون وأرسطو، فالأول كانت لديه "كلمة "تقنية" مرتبطة دائما بالكلمة "إبيستينون" وهي تعني العلم أو المعرفة" (هايدغر، 1995، ص53) مبيناً أن التقنية لا تصنع ولا تأتي بالجديد، بل إن ما تقوم به هو إظهار وكشف لما هو محتجب في الطبيعة ومختزن فيها من طاقة مخبوءة وما يتم هو انكشاف للشيء وانجلاء لحقيقته. أما فيما يتعلق بأرسطو فيرى هايدغر أن الإنتاج هو الذي يسمح للعلل الأربع الأرسطية: المادية، والصورية، والغائية، والفاعلة بتأدية أدوارها من خلال التحرك فيه؛ كما أن هايدغر في سبيل تمييزه لحيثية التقنية يرى "أن النقطة الحاسمة في التقنية لا تكمن نهائيّاً في الفعل والاستعمال، ولا في استخدام الوسائل أيضاً، بل تكمن في الانكشاف" (هايدغر، 1995، ص54).

استكمالاً لتحليل البناء النظري للتقنية ضمن آفاق الإمكان والاستحالة لدى هايدغر نعرج على علاقة التقنية بالثقافة، ويمكن استخلاصها من عدة جوانب: جانب يتعلق بالمحركات الثقافية والمجتمعية التي أسهمت في انبثاق التقنية لترى النور شاخصة أمام أعيننا وماثلة للعيان، وقد ارتبطت هذه المحركات بما يسمى "ماهية التقنية"، بينما يحايث التقنية بوصفها منتوجاً ماديّاً ثقافة مهيمنة تضع الإنسان أمام حتمية تاريخية ترافق التقنية وتبسط تحكمها من خلال صيرورة متراكمة تطال جل مفاصل العالم المعيش؛ فماهية التقنية ليست بالمطلق شيئاً تقنيّاً، كما أن وجود التقنية يرتبط بتحقيق غايات إنسانية بالإضافة إلى أن التقنية فاعليّة إنسانية محضة (هايدغر، 1995، ص 43–44).

ما يحسب لسيموندون في جزئية إمكان التقنية أنه حررها من القالب الأداتي بوصفها تلعب دوراً محدداً في الإنتاج يتعارض مع الثقافة ومع مجمل قيم الإنسان المجتمعية، بل أنه أماط اللثام عن أدوار عديدة للتقنية في تشكيل الوجود الإنساني وتعظيم قيم الإنسان وارتباطها الوثيق بالثقافة؛ لأن الثقافة تتشكل من عوامل مختلفة كالسلوك الإنساني وتفاعل الإنسان مع مجتمعه وتفاعل المجتمع مع مجتمعات أخرى. فلا يمكن التعامل بمنطق التضاد والتنافر بين ما هو ثقافي وما هو تقني؛ من هنا يمكن اعتبار دمج الثقافة مع التقنية في نمط تفاعلي مشترك من أبرز ما يحفز استغلال إمكانات التقنية وتحقيقها لما يصبو إليه الإنسان بتحويل ما هو مستغلق وبعيد المنال إلى شيء قابل للانبثاق والتحقق.

نظرة فلسفية على مفهوم التقنية بين الثقافة والطبيعة لدى جيلبرت سيموندون

تبنى سيموندون وجهة نظر ترى أن الثقافة ليست بالضرورة ضد الطبيعة، بل يمكن أن تنشأ الثقافة من الطبيعة أيضاً أو أن تكون امتداداً لنشاط الطبيعة. فالكثير من المهارات التي طورها الإنسان هي في الواقع امتداد لقدرات تقوم بها الأعضاء الجسدية للإنسان؛ فالأدوات الزراعية (المناجل والفؤوس) والأسلحة (الهراوات والرمح) هي أدوات لما يمكن القيام به – بكفاية أقل) باليدين والذراعين. والكمبيوتر يمثل امتداداً لدور العقل الإنساني، وبالتالي الثقافة هي عملية توسيع أو تعزيز لما أعطتنا إياه الطبيعة، والثقافة تُكمل ما قد بدأته الطبيعة. ما يريد سيموندون الوصول إليه هو بناء علاقة جديدة بين الثقافة والتقنية.

من يغوص في فلسفة سيموندون يستشعر أنه كان حريصاً في دراسته لفلسفة التقنية على إبراز التناغم بين مركبات الطبيعة والثقافة والتقنية، وكأنه يطلب من دارسي فلسفته التفكير بطريقة مغايرة لما كانت عليه؛ فالتكنولوجيا – بما تمثله من جانب تطبيقي لما هو نظري – باتت أكثر اندغاماً في الوجود الإنساني؛ فقد أصبحت "التكنولوجيا عنصراً تأسيسيّاً في الحياة الإنسانية" (Simondon, 2012,

p20)، ولم يتحدد سؤال التكنولوجيا بأن يكون سؤالاً معرفيّاً فقط، بل هو سؤال وجودي أيضاً يدخل في التكوين الأنطولوجي للكينونة الإنسانية.

ضد الهيلومورفيزم الأرسطي:

تحتل فكرة نقد النموذج الهيلومورفيزمي الأرسطي موقعا أساسيّاً في فلسفة سيموندون ويمكن اعتبارها الحلقة الأولى والأساسية لفهم فلسفة سيموندون وخصوصاً نقده لمفهوم التقنية الكلاسيكي الذي فصل الثقافة عمّا هو تقني. الهيلومورفيزم تتكون من اتحاد كلمتين Hyle المادة وMorphe الصورة، واستعمل أرسطو هذا النموذج لتفسير نشأة الأشياء الفردية. فكل ما هو موجود إنما يتكون من مادة وصورة. لذلك بدأ سيموندون الفصل الأول من كتابه (On the Mode of Existence of Technical Objects) بنقد نموذج أرسطو في تفسير ما هو موجود من خلال إرجاع الموجود إلى عنصرين أساسيين (الشكل – المادة) (Form- Matter). وحسب أرسطو فإن الهيولى والصورة لا تنفصلان، فلا صورة من غير هيولى ولا هيولى من غير صورة، فكل موجود في العالم يتكون منهما، وانفصالهما يكون في الذهن فقط.

فقد أراد أرسطو تصحيح النماذج السابقة عليه وخصوصاً فلاسفة ما قبل سقراط بخصوص فهمهم للوجود والذي كان لديهم يعني ما هو مادي والتي تتم ترجمتها بالعادة إلى "الطبيعة". بل أن يصحّح كذلك المنظور الأفلاطوني الذي يرى أن ما هو حقيقي لا يمكن البحث عنه فيما هو مادي، لأن المادة في تحول دائم وأفلاطون كان يبحث عن الثبات وعمّا هو دائم مقابل المؤقت.

بالرغم من أن مفهوم أرسطو حول ما هو موجود ملتبس قليلاً كما يرى ذلك سيموندون إلا أنه يمكننا القول: إن كينونة الشيء حسب أرسطو تعني في المقام الأول ماهيته[1]. وقد تمت محاولة تجاوز هذه الثنائية الأرسطية (الظاهر – الجوهر) بما هي تعبير عمّا هو موجود ونجد أهم تلك المحاولات ما قام به هايدغر (على سبيل المثال) في أن جوهر الدازين يتمثل في وجوده. ويمكن فهم فلسفة سيموندون في هذا الإطار أيضاً، فقد حاول تفكيك هذه الثنائيات أو بالأحرى تجاوزها وذلك من أجل فتح الطريق لفهم جديد للوجود قائم على التشابك بين الأطراف وليس الفصل بينها (Simondon, 2009, p 3).

وقد وضح سيموندون رؤيته النقدية للمفهوم الأرسطي من خلال مثال (الطوبة / اللبنة) والذي يوضح من خلاله أن الطوبة لكي تخرج إلى الوجود – بحسب سيموندون – من خلال هذه الرؤية الأرسطية فإن ما يحدث هو أن عملية تشكيل الطوبة تمثل اتحاداً بين "المادة"، وهي في هذه الحالة: الصلصال، و"الشكل"، وهي في هذه الحالة: القالب. هذه الرؤية تفترض أن البشر فريدون من الناحية الميتافيزيقية وذلك في قدرتهم على فرض الشكل على المادة من خلال سيطرتهم التكنولوجية على البيئة المادية. وبالتالي فإن هذه النظرة (الهيلومورفيزم) تمنح البشر وضعاً استثنائياً مقابل الطبيعة داخل عملية تكوين الطوبة. وتكون المشكلة هنا حسب سيموندون هي افتراض نشوء العمليات التكنولوجية من خلال نشاط عقلي صرف يتجاوز الطبيعة غير المفكِّرة، ويتغاضى عن احتمال وجود عناصر (غير بشرية) يكون لها دور مهم في تشكيل الحدث.

وهكذا تصبح المعادلة الهيلومورفزمية حسب سيموندون عبارة عن (مادة غير مفكرة Matter – وتمثلها الطبيعة) وقدرة إبداعية للعقل البشري Form– الشكل). وبالتالي فإن منشأ الطوب هو العقل البشري، والشكل يكون دائما تجسيداً لنوايا المصمم، وبالنتيجة النهائية يكون أصل العمليات التكنولوجية شأناً إنسانيّاً صرفيّاً.

يرى سيموندون أيضاً أن المشكلة في هذا النموذج تكمن في أن هذه العملية تمر عبر وساطة أنثروبولوجية. أي أن العمليات التكنولوجية تعطي امتيازاً ميتافيزيقيّاً للإنسان بصفته كائناً مفكراً ولذلك لديه (الإنسان) استثناء / إعفاء من القواعد التي تحكم الطبيعة غير المفكرة. عودة إلى مثال الطوبة فعملية تشكيل الطوبة من الصلصال لا يمكن اختزالها إلى "صورة" تنشأ وتتكون فقط في عقل الانسان، بل إن ما يحدث في تلك اللحظة هي عملية التفرد Individuation والتي

[1] لفهم أوسع لمعنى الكينونه عند أرسطو يمكن الرجوع إلى كتاب:
Miguel de beistequie, Truth and genesis: philosophy as deferential ontology, Bloomington: Indiana University press, 2004: p 39-48.

تفترض اتساقها من خلال تعديل مستمر للقوى المادية المختلفة. وعليه فإن مصدر الفاعلية التقنية حسب سيموندون ليس العقل، ولكنه يعود في المقام الأخير إلى عملية التفرد (Roberts, 2017, p 3).

فالمطلوب إذن تشكيل فهم جديد للتكنولوجيا والعمليات المرافقة لها من خلال نظرة لا ترى الإنسان متجاوزاً للطبيعة أو واهباً للشكل. فلا يمكن فهم التكنولوجيا والعمليات التقنية المرافقة لها من منظور بشري صرف، لأن هناك عوامل أخرى تشترك في تشكيل العمليات التقنية. وكما يقول سيموندون "التكنولوجيا جزء منا" كل آلة لديها شيء من الإنسان محبوس بداخله، غير معترف به، ولكنه رغم ذلك بشري. وعليه فإن التشكيك في صلاحية الهيلومورفيزم والاستثناء البشري المرافق له يتطلب النظر إلى الأشياء التقنية على أنها "أنماط من الوجود الخاص" وهذا يفسر لنا العنوان الذي اختاره سيموندون لكتابه الرئيسي: On the Mode of Existence of Technical Objects.

نقد سيموندون للفكر الأرسطي وخصوصاً بما يخص ما هو موجود وكيفية تشكله (المادة – الصورة) يجب ألاّ يفهم على أنه ينفي التشابك الأساسي بين الإدراك البشري والعمليات التكنولوجية، بل يجب أن يُفهم على أنه نقد فكرة أن الظروف الأنطولوجية للتكنولوجيا يمكن أن تقع بالكامل داخل الذات المفكرة. فمن المؤكد أن أي عملية تقنية تتطلب إمكانات عقلانية يمتلكها العقل البشري، ولكن ما يتم تجاوزه هو ما يطلق عليه سيموندون التناسق consistency الذي يأخذ طابعاً وجوديّاً (Simondon, 2017, p26).

إن الخلل في التصور الهيلومورفيزمي أنه يعتمد عند وصف أي جسم على المادة والصورة، متناسياً الطاقة اللازمة لتحويل الطين – الصلصال (الخالي من الشكل) إلى لبنة متوازية الأسطح. بمعنى أن الطوبة لا تُنتج من اتحاد الصلصال والشكل المتوازي، بل هناك ما هو أكثر من ذلك الاتحاد. فهناك عملية تقنية فعالة تعمل على التوسط ما بين الصلصال وفكرة توازي الأسطح.

الحل في التفرد لدى سيموندون

ما سبق يعني أن التقنية تشتبك مع كل من الطبيعة والثقافة ولا تنفك عنهما؛ لأن التكوين الأنطولوجي للكينونة الإنسانية لا ينفصل عن طبيعة الإنسان وثقافته بل هو ملتحم التحاماً تامّاً بهما إن لم يتشكل أصلاً من تفاعلاتهما في الوجود، ويدعونا سيموندون في خضم محاولاتنا لفهم الوجود إلى أن نقيم تمايزاً بوساطة "التفرد وهي العمليات التي تجعلنا قادرين على التمييز بين ما هو عضوي وغير عضوي، وبين ماهو تقني وما هو ثقافي"(Simondon, 2012, p37)، فثمة ربط بوساطة التفرد بين التقنية والطبيعة حري بالدراسة والاستقصاء؛ إذ إن كلّاً من التقنية والطبيعة يجتمعان في التطور الذي يحصل لهما، فعلى سبيل المثال هناك تطور طبيعي بحسب المنطق الداروينى وهذا التطور يتم تبعاً لعملية اصطفائية متمايزة، كذلك فإن التقنية تتطور عبر سلالات مختلفة، "وعلى غرار تطور الكائنات الحية، يمر التطور التقني بعمليتين متكاملتين، ألا وهما: التجاور والتكامل" (كابلن، شابوتييه 2015، ص19)، وبداية تتجاور العناصر التقنية الأولية وبعد ذلك تتكامل ضمن نظام نسقي تطوري تفاعلي، وهذا ما يسميه سيموندون بلغته "التفرد"؛ أي التطور للمتجاورات بشكل تكاملي وعلائقي متناسق، وهذا رابط أخذ به سيموندون في بناء أساساته الفلسفية للتقنية معتبراً أن التقنية هي بالمقام الأول محاكاة للطبيعة بما تتضمنه من إمكان في القابلية التطورية لعناصرها.

يتضح من دراسة أفكار سيموندون أنه يؤمن بالتداخل والتفاعل؛ فهو لا يأخذ بالثنائيات ويجعل من الأضداد أطرافاً متشابكة ومتقاطعة ولا تحمل طابعاً متنافراً ومستقلاً، وهذا يجعله مختلفاً عن نظرية الصورة والمادة لدى أرسطو التي تقول بوجود صورة محددة مسبقاً تحدد شكل المادة، بينما يعول سيموندون على التحول "من الكينونة إلى الصيرورة، ومن المادة إلى التفرد"(Scott, 2014, p 5)، والتفرد يرجع إلى قوى تسبقه هي ما يحدد معالمه ويجعل منه مميزاً لنظام دون آخر وهذه القوى تتمثل في طبيعة العلاقات والحركة بين التشابكات ضمن عناصر النظام الواحد، وهذا يبقيها في حالة صيرورة وتشكل دائمين. وبذلك فقد تجاوز سيموندون الهيلومورفيزم الأرسطي المستند إلى ثنائية الشكل والمادة وحرر الشكل من سلطة المادة وفروضها المسبقة.

في محاولته لبناء نظرية الطبيعة لم يأخذ سيموندون باللغة بوصفها أساساً لتكوين أفق متعال يستوعب تفسير الطبيعة

البشرية وطريقة تعاطيها مع الوسط المحيط، بل بنى "نظرية الطبيعة" الخاصة به "من خلال محاولته الدفع بالحس كمسلمة فينومينولوجية والتي تشكل ضمانة لأي نوع من أنواع الخطاب وللطبيعة ذاتها" (Bardin, 2015, p 45)، وهنا يريد سيموندون أن يربط التفرد بما يمثله من تطور تفاعلي يمس الأجزاء المتجاورة المكونة للنموذج الطبيعي الإنساني بظاهرة الحس والتي لها النصيب الأكبر من منظوره في تشكيل الذات والوعي الإنساني. كما يعود بنظريته في الطبيعة إلى مفاهيم ترتبط إرتباطاً وثيقاً بميكانيكا الحركة والظواهر؛ "كالتوازن المستقر والنسيج البدئي البنيوي(Structural germ)" (Bardin, 2015, p 45)، وهي البديل للغة والتي لا تمثل معلومات حقيقية بل هي مجرد ناقل بينما تمثل مفاهيم سيموندون والتي يزاوج فيها بين العلم وفلسفة العلم – قدرة على التفاعل بين المكونات ونقلها من طرف إلى طرف كما أنها تضمن التبادل في الأجزاء الجديدة المتكونة، وبذلك يسقط سيموندون أفكاره على ميكيانيكا المواد ليصوغ نموذجه الخاص في تكوين مركبات الطبيعة والتقنية.

من الخطأ أن تضع الثقافة نفسها نقيضا للتقنية، كما أنه من الخطأ اعتبار التقنية عدوا لها بصفتها تحمل أفكاراً دخيلة يجب الحذر منها وإبقاؤها مقننة ومقيدة، وهذا ما يدعو له سيموندون وذلك بأن نفهم أن الآلة منتج أساسه ثقافي قبل أن يكون تقنيّاً، كما أن سيموندون في فلسفته لا ينطلق مفاهيميّاً من الثنائيات المتضادة، وقد "رفض المتضادات المفهومية للطبيعة / الثقافة والتقنية / الثقافة" (Barthelemy 2015, p 48)، ويمكن القول كما أسلفنا إن سيموندون ينزع إلى أن يكون "التخطي والتجاوز للثنائيات" منهجه، فهو يتجاوزها وصولاً إلى مركب ثالث يتضمن الثنائيات المتضادة، لكنّه يحيلنا إلى مركب توافقي غرضه الاستمرار لا التوقف.

ويجدر بنا الإشارة إلى أن استقصاء سيموندون سؤالَ أصول الطبيعة البشرية بين الثقافة والطبيعة يُظهِر أنه قد استعان "بمفهوم "العابر للتفرد"؛ إذ استطاع تجنب التخلي عن الحل البنيوي والحل الظاهراتي المتمثل بتحديد الأصل من خلال الأفق المتشكل أصلا للوعي بموضوع ما" (Bardin 2015, p111). ومن هنا نستطيع القول: إن سيموندون اجترح حلّاً من خلال تقديمه لمفهوم التفرد متجاوزاً الجدل الدائر حول موقع التقنية من الطبيعة والثقافة. ولم يأخذ بالثنائيات بالمعنى الكلاسيكي على أنها أضداد متنافرة ومتباعدة بل فتح آفاق التواصل فيما بينها بتبني نموذج أكثر دينامية وتفاعلاً، كما أنه لم يقبل بأن يكون الفرد معطًى قبليّاً بل إن عملية التفرد سابقة على الفرد. وقد جاء جيل دولوز (Gilles Deleuze) (1925-1995) على ذكرها في معرض تحليله لهذه الفكرة بأن "تضع مبدأ التفرد قبل عملية إيجاد الفرد" (Deleuze, 2002, p86) وهي عملية مستمرة لا تتوقف، استعان سيموندون بها لتفسير العالم والعلاقات التي تشكل جانباً أساسيّاً في تكوينه، لذلك نجده يشير بشكل واضح إلى ضرورة التحول من البحث في الشروط الوجودية للفرد إلى ميكانيزم البناء العلائقي لوجود الفرد؛ إذ لم تعد الشروط الوجودية لوحدها منطلقاً، بل حدثت استدارة نحو سمات الفرد وظروفه وبيئته وتعاطيه مع الوجود.

سيموندون يعاين الاغتراب

عني سيموندون في دراساته الفلسفية بمفهوم الاغتراب وكان له نظرته الخاصة من خلال إعادة التفكير بالمفهوم وتبني ثقافة تتسلح بالتقنية وتشدد على تقريب الإنسان من التقنية بدلاً من اعتبارها كياناً مضادّاً له.

ضد ماركس: مفهوم الاغتراب الماركسي حسب سيموندون مجتزأ، فثمّة اغترابان حسب سيموندون وليس اغتراباً واحداً. الأول: اغتراب العامل عن محيطه وهو ما أشار إليه ماركس. ولكن الاغتراب الثاني، اغتراب الإنسان عن الأشياء التقنية. فالتحليل الماركسي للاغتراب يعتمد على الاقتصاد بما هو عنصر أساسي، وبذلك يكون ماركس (حسب سيموندون) قد تجاهل عنصراً لربما هو أكثر أهمية من العامل الاقتصادي: العلاقة الأساسية بين الإنسان والآلة (Simondon, 2017, p 16).

مع وضد هايدغر: يرى سيموندون مع هايدغر أن هذا التفسير الأرسطي لنشأة الأشياء غير كاف وغير قادر على توضيح ماذا يحدث فعلاً على أرض الواقع. فرغم اختلاف وجهات النظر بين هايدغر وسيموندون حول العديد من القضايا، إلا أنهما يتفقان على الدور الأساسي لمفهوم التقنية الذي لعبته في الحضارة الغربية، فعلى الرغم من أن هايدغر غالباً ما يُصوَّر على أنه شخص متحفظ بخصوص

التكنولوجيا، إلا أنه شارك سيموندون في الإيمان بالأولوية الأنطولوجية لانخراطنا في عالم من الممارسات المكونة للمعنى والإمكانيات الموجهة تقنيًا، فمن خلال تفضيل العمل الحرفي اليدوي والإبداع الشعري بوصفها مصادر للكشف الوجودي عن العالم، أعادت فلسفة هايدغر للتكنولوجيا إنتاج الإطار المعياري للثقافة التقنية ما قبل الصناعية، أو على أقل تقدير القلق الثقافي لبرجوازية ريفية صغيرة تشهد تحديثًا سريعًا عند منعطف القرن في ألمانيا. لذلك يكمن الحل الهايدغري في العودة إلى الوراء، أي إلى نقطة عدم انفصال ما هو تقني عمّا هو ثقافي. بينما يرى سيموندون الحل من خلال تطوير فلسفة جديدة موجهة نحو التقنية لا تفصل ما هو ثقافي عمّا هو تقني بل ترى التكنولوجيا جزءاً من الثقافة.

قدم هايدغر نموذجًا للاغتراب التكنولوجي، إذ لم يعد بإمكان الإنتاج الآلي والحساب توفير العلاقة بين البيئة والأفراد، تلك التي تم توفيرها سابقاً في مجتمعات ما قبل الصناعة، وبالتالي، في نظره على الأقل، إلى "إزالة العالم" للوجود البشري De-worlding of human existence.

لا شك أن سيموندون يتوافق مع هايدغر على ضرورة تغيير جذري في تفكيرنا، ولكن بدلاً من انتظار شاعر– فيلسوف لاستعادة إحساسنا بالوجود التاريخي، يجب أن يكون طبقاً للتصور السيموندوني مهندساً– فيلسوفاً، لإعادة إمكاناتنا الابتكارية (ومسؤوليتنا) في التطور المشترك للأنظمة البيولوجية والتقنية.

الخاتمة:

يمكن أن نخلص إلى أن مفهوم التقنية فلسفيّاً لدى سيموندون أداة وصل بين الإنسان والطبيعة ذاتها، الإنسان بما يمثله من خصائص محددة؛ إذ ثمة عوائق متعددة في التفاعل والتواصل بينهما لكن التقنية بما تحمله من بعد تطبيقي "تكنولوجي" تمثل إمكاناً يسعى إلى سد الفجوة القائمة ومقاربة الأفكار، وما يجدر بالذكر أن التقنية تعبر عن حصيلة الإنسان من الثقافات المكتسبة، وما وصل إليه بعد أن حاول بكل ما يعرف من مراكمات ثقافية في تطوير الأدوات والآلات التي مكنته من إنجاز أعماله، وإنّ هذا التعامل مع التزايد المستمر في تقدم التقنية وتطبيقاتها ولد حاجة إلى بناء ثقافة تقنية خاصة تساعده في التعامل مع هذا الفضاء الجديد بمعرفة متخصصة ومهارة مناسبة، مع الإشارة إلى أن التقنية كانت تعتمد على المعرفة بالحرف اليدوية لكن التطور السريع والهائل في التطبيقات التكنولوجية يعزى إلى ارتكاز التكنولوجيا على العلم وما يمثله من اختصاصات عالجت موضوعات الطبيعة بدقة ومنهجية.

على صعيد متصل، لجأ سيموندون إلى تحليل العلاقة بين الطبيعة والتكنولوجيا من خلال تحليل التنافر المتعارف عليه بين الثقافة والتقنية، باعتبار أن التكنولوجيا لا تعتدي على الطبيعة من منظوره كما أن الثقافة منوط بها إعادة وصل الطبيعة بالتقنية من خلال الارتقاء بالتكنولوجيا ذاتها والعمل على تحقيقها للتكامل في أدائها لدورها بعد تشذيبها بمساعدة الثقافة، كما أن بديهية الجغرافي الكوني "Cosmo-geographic a priori" وهي مفهوم تبناه سيموندون يوضح فيه كيف أن الطبيعة والإنسان يتفاعلان في تكامل واضح وضرب مثالاً على ذلك من أن الهوائيّ أو الأنتينا "Antenna" يرتكز في عمله إلى المكان المرتفع وإلى شبكة النقاط الواصلة لاتمام عملية البث للترددات الفائقة وهذا ما يحقق "التعاون مع الطبيعة" بين شبكة أسسها كل من الإنسان والجغرافيا الطبيعية للمنطقة (Hui, 2017, p 15).

بعد أن درس سيموندون العلاقة بين الطبيعة والتكنولوجيا انتقل سيموندون الى محاولة تشكيل وعي اجتماعي حول التقنية يرمي الى إعادة إدماج التكنولوجيا داخل الثقافة. ولذلك نجده قد انتقد وضع الثقافة المعاصرة معتبراً إياها نظاماً أيدولوجيّاً دفاعيّاً ضد التقنية، والذي من أعراضه الواضحة تجريد الحياة البشرية من محيطها المادي والتقني. وعلى عكس تلك النظرة المعاصرة المعادية للتقنية يرى سيموندون أن تطور الأشياء/ الأغراض التقنية يمكن فهمها على أنها امتداد خارجي لوظائف الإنسان البيولوجية، والتي يتم تحفيزها أو تقييدها من خلال الظروف البيئية المختلفة، والتي تشكل مجالها النفسي – الاجتماعي، وتأتي الأعراف والمعتقدات لإعادة استثمار هذه الوظائف البيولوجية في الجانب الثقافي. نتيجة لما تقدم فإن سيموندون يدفع إلى نفي وسم التقنية بوصفها كياناً مضادّاً للثقافة؛ لأن التقنية انطلقت من صلب الثقافة وأن الإنسان بوصفه كائنا يصنع هذه التقنية لا يعقل أن

تكون التقنية جسماً غريباً يسعى إلى الإطاحة به، وبما يمثله من قيم ثقافية، وإلى إبعاده عن مكانه بما هو ذات فاعلة تمثل المركز في الوجود؛ وعليه فإن سيموندون يدعو إلى توسيع النطاق الثقافي المتعلق بالتقنية بغرض إدراك أهمية التقنية وعدم اعتبارها تهديداً للإنسان وجوديّاً ووظيفيّاً. كما أن سيموندون نقلنا من مفهوم عدم الاعتراف المتداول من قبل تيارات فلسفية نظرت إلى الثقافة والتقنية على أنهما نقيضتان لا يمكن أن تجتمعا وتتوافقا إلى الاعتراف بالتقنية بعيداً عن تدشين حواجز فاصلة بينهما؛ لأن في هذا الاعتراف تجاوزاً للشعور بالاغتراب من قبل الذات التقنية في وجود تشكل الثقافة فيه أساساً للاندغام في العالم المعيش.

كما يرى سيموندون أن عصره، عصر الشمولية السوفييتية، والرأسمالية الأمريكية، والاقتصادات الأوروبية في فترة ما بعد الحرب، قد أصبحت فيه الثقافة، بوصفها تعبيراً معياريّاً عن بيئة إنسانية – تقنية معينة، بعيدة تمامًا عن الشروط التكنولوجية الفعلية لتلك المجتمعات؛ وذلك نتيجة لعدم الاندماج بين التكنولوجيا وبقية العناصر الآنفة الذكر، فتبقى الثقافة مجمدة في حالة انغلاق أيديولوجي، وتتعارض كذلك مع قوى الأنظمة التقنية المعاصرة. من هذا المنظور، فإن التعارض بين التقنيات والثقافة هو في الأساس صراع أيديولوجي ينشأ من سوء فهم أو جهل ما يجري حقيقة أو بتعبير أدق يعود إلى فشل النظام الاجتماعي في إضفاء الطابع المؤسسي على ما يعترضه من تغير تكنولوجي، ومن عدم معالجة الآثار البيئية والنفسية الاجتماعية غير الطوعية التي ينتجها هذا التغيير.

لا يخفى أن سيموندون قرأ المستقبل متنبئاً بأنه سيكون مستقبلاً تقنيّاً بامتياز، ولم يأخذ بفكرة أن التقنية مضادة للثقافة وتسعى إلى تقويض الطبيعة، بل إنه قفزعن ذلك داعياً إلى الأخذ بالتقنية معتبراً أنها تشترك مع الطبيعة والثقافة في صياغة الوجود الإنساني بجميع تمظهراته وتجلياته ولم تكن يوماً سبباً في خلق حالة الاغتراب، وبما أن سيموندون تأثر بالفيلسوف هنري بيرغسون (Henri Bergson 1859-1941) في أفكار عدة منها تشكل الوعي ومستقبليته، فقد ساهمت هذه الأفكار في إنضاج رؤية سيموندون وريادتها وقراءته للمستقبل بمفردات عصره، ولا ننسى أن بيرغسون يرى أن "كل وعي هو استباق للمستقبل" (برغسون، 1991، ص9)، وبذلك يكون سيموندون قد اقتفى خطوات المستقبل عبر استلهامه لأفكار بيرغسون حيال علاقة الوعي بالمستقبل.

المصادر والمراجع

أرسطو، 1984، ***الطبيعة***، ج1، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.

أرسطو، 1998، ***الفيزياء – السماع الطبيعي***، ترجمة: عبدالقادر قينيني، أفريقيا الشرق.

أفلاطون،2001، ***في السفسطائيين والتربية محاورة "بروتاجوراس"***، ترجمة د. عزت قرني، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

برغسون، هنري، 1991، ***الطاقة الروحية***، ترجمة: علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

بيكون، فرانسيس، 2013، ***الأورجانون الجديد***، ترجمة: عادل مصطفى، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.

ديكارت، رينيه، 2008، ***حديث الطريقة***، ترجمة: د. عمر الشارني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

ديوي، جون، 2014، ***الحرية والثقافة***، ترجمة: أمين مرسي قنديل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شطارة، عامر، 2018، جدلية الطبيعة والثقافة في الفكر الحديث نحو تأصيل فلسفي، ***المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية***، **11**(1)، 113- 126.

فوكو، ميشيل، 1989، ***الكلمات والأشياء***، بيروت، مركز الإنماء القومي.

كاكو، ميتشيو، 2013، ***فيزياء المستحيل***، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة، عدد 399 أبريل، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

كابلن، فريدريك، وجورج شابوتييه، 2015، ***الإنسان والحيوان والآلة: إعادة تعريف مستمرة للطبيعة الإنسانية***، ترجمة: ميشيل نشأت، وندسور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

كوش، دينيس، 2010، ***مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية***، ترجمة: د. منير السعيداني، بيروت، المنظمة العربية للترجمة.

ماركس، كارل، 1985، ***رأس المال***، المجلد الأول، ترجمة: فهد كم نقش، موسكو، دار التقدم.

ماركس، كارل، 1974، ***مخطوطات ماركس***، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، القاهرة، دار الثقافة الجديدة.

ماركوز، هربرت، 1988، ***الإنسان ذو البعد الواحد***، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: منشورات دار الأداب.

هابرماس، يورغن، 2003، ***العلم والتقنية كإيديولوجيا***، ترجمة: حسن صقر، كولونيا: منشورات الجمل.

هايدغر، مارتن، 1995، ***التقنية، الحقيقة، الوجود***، ترجمة: محمد سبيلا وعبدالهادي مفتاح، بيروت، المركز الثقافي العربي.

REFERENCES

Bardin, A., 2015, ***Epistemology and Political Philosophy in Gilbert Simondon***, Berlin, Springer Science and Business Media.

Barthelemy, J. H., 2015, ***Life, Technology beyond Simondon***, Tran: Barnaby Norman, Luneburg, Meson Press.

Beistequie, M., 2004, ***Truth and Genesis: Philosophy as Deferential Ontology***. Bloomington: Indiana University press, p 39-48.

Deleuze, G., 2002, ***Desert Islands and Other Texts***, Cambridge, MIT Press.

Habermas, Y., 1992, ***Moral Consciousness and Communicative Action***, translated by: Christian Lenhardt and Shierry Weber Nicholsen, Cambridge, Polity Press.

Hui, Y., 2017, On Cosmotechnics: For a renewed relation between Technology and Nature in The Anthropocene, ***Official Journal of the Society and Technology***, ISSN: 2691-5928 (online), p15.

Roberts, T., 2017, Thinking Technology for Anthropocene: Encountering 3D Printing Through the Philosophy of Gilbert Simondon, ***Cultural Geographies***. https://doi.org/10.1177%2F1474474017704204.

Scott, D., 2014, ***Gilbert Simondon's Psychic and Collective Individuation***, Edinburgh, Edinburgh University Press.

Simondon, G., 2009, The Position of the Problem of Ontogenesis, Trans.: Gregory Flanders, ***Parrhesia***, (7), 4-16.

Simondon, G., 2012, ***Being and Technology***, Edinburgh, Edinburgh University Press.

Simondon, G., 2017, ***On the Mode of Existence of Technical Objects***, Trans.: Cecile Malaspina and John Rogove, Minnesota, University of Minnesota Press.

Stiegler, B., 1994, ***Technics and Time***, Trans.: Richard Beardsworth and George Collins, Stanford, Stanford University Press, part 1.

Taylor, E., 2016, ***Primitive Culture***, New York, Dover Publications.

The Concept ofTechnology between Culture and Nature for Gilbert Simondon: AContemporary Philosophical Study

***Malek Tarawneh*[1]*, Amer Shatara*[2]**

ABSTRACT

This research aims to achieve a philosophical approach to the concept of technology and its relationship to culture from the perspective of the French philosopher Gilbert Simondon, as his ideas have gained great importance in the midst of the tremendous development of digital technology and the information revolution that marked the current human and cultural scene. Therefore, this study came using the analytical –critical approach to clarify Simondon's attempts to localize technology in daily human action, so that it is actually consistent with human nature and nourishes the cultural aspect rather than the relationship of antagonism. Simondon's primary question in this research is "What place do technology and its accompanying technical processes have in our lives?" Are we going to consider it something negative and dangerous and, therefore, we need to get rid of it and go back to pre-technological times, r will we consider it the best thing that happened to us and that it is capable of solving all human problems and, therefore, must be developed? Simondon's answers to these questions came first through a critical philosophical review of the concept of technology by returning to Aristotle's interpretation of what "exists" through the model of Hylomorphism to Heidegger through Marx and Bergson. Secondly, they came through exposing the dialectical relationship between culture and nature, which has not received an extensive analysis, exposing what is hidden behind this relationship and standing at the points of convergence between them in order to think about the establishment of a coherent philosophical structure that bridges the gap that made man feel a threat to his existence and a violation of his free will, constantly trying to overcome the state of alienation that he feels. After his involvement in a technical society, he is the one who laid its foundations and invented the machine, but he is afraid of losing its value as a knower and a creator in front of the domination and authority of the machine.

Keywords: Technology, Culture, Nature, Alienation, Philosophy, Individuation

[1] PhD in Western Philosophy, University of Jordan, Amman, Jordan.
malektarah@yahoo.com
[2] Department of Philosophy, College of Arts and Sciences, Qatar University, Qatar.
Received on 20/10/2022. Accepted for Publication on 12/7/2023.